عشاق ومرضى وأسرى أستراليون من دمشق إلى بانكوك

فلاناغان وروايته «الدرب الضيق إلى مجاهل الشمال» بالعربية

عبدالله مكسور
كاتب من سوريا

❏ قبل الشروع بقراءة رواية "الدرب الضيِّق إلى مجاهل الشمال"، لا بدَّ من البحث في تاريخ الحرب العالمية الثانية "1939–1945"، خصوصاً فيما يتعلق بالمشاركة العسكرية الأسترالية في مناطق مثل سوريا ولبنان وفلسطين، وأخرى في الشرق الأقصى الآسيوي في سنغافورة واليابان.

ذلك البحث الأولى سيمنح القارئ أرضية صلبة تمَكِّنه من فهم طبيعة وعمق التواجد الأسترالي وشبكة التحالفات التي بناها ذلك الجيش الذي وقع جنوده أسرى لدى الجيش الإمبراطوري الياباني عقِب سقوط سنغافورة، فاستخدمهم الجنرالات إلى جانب العبيد في إنشاء سكة الموت.

يطوف الكاتب الأسترالي ريتشارد فلاناغان، المولود في العام 1961، عبر 477 صفحة في روايته "الدرب الضيِّق إلى مجاهل الشمال" الفائزة بجائزة "المان بوكر العالمية"، والصادرة بترجمة خالد الجبيلي عن دار الجمل منذ أسابيع، في عوالم غريبة وغرائبية بذاتِ الوقت، فتبدأ الرواية تاريخياً في 15 فبراير من العام 1943، بطلها هو دوريغو إيفانز، الطبيب الجراح الذي ترمي به الأقدار شاهداً على المجزرة الصامتة التي كانت تُنَفَّذُ على طول 414 كيلومترا، لتمتد جغرافياً من شمالي بانكوك حتى بورما أو ما يعرف اليوم بميانمار.

ريتشارد فلاناغان استقى عنوان روايته من قصيدة "هايكو" للشاعر الياباني الشهير ماتسو باشو، لكنه في المتن لجأ إلى ذاكرة حيَّة ورثَها عن أبيه الذي حمَل الرقم "335" في فتَرة اعتقاله لدى القوات اليابانية بعد سقوط سنغافورة، رحلة عذاب ومعاناة قبل أن يولد الكاتب بما يقارب العقدين من الزمان، كان أبوه حينها شاباً مقاتلاً في الجندية الأسترالية التي طافت بلاد الشام في حربها ضد حكومة فيشي الفرنسية الموالية للألمان.

في هذه الرواية التي سكنَت فلاناغانِ من مراحل طفولته الأولى، كما يبدو واضحاً في تصريحاته، قد أخذت منه أكثر من 12 سنة في كتابتها، حيث اعتزل مراراً على جزيرة في قرية نائية بالقرب من مسقط رأسه في مدينة "تسمانيا" بأستراليا، جالساً في كوخ منقطع عنِ العالم ليكتب فقط، يقول إنه أنجز خمس نُسخ لا تشبه بعضها من هذا النص، وهذا واضِح في طريقة السرد التي انتهجها الكاتب، فالعمل ينتقل على العديد من المستويات، يميل في جانب منها إلى التقريرية بينما تحلّ الصِيَغ والتراكيب الوصفية على مساحات واسعة منها.

في الفصول الأولى يستهل الكاتب الحديث عن الجيش الأسترالي وتواجده في سوريا، فالمدن السورية تظهر دون أسماء واضحة سوى دمشق العاصمة، يصف القتلى من الجنود والمدنيين، الدمار الذي حلَّ بالقرى والمدن، الانتقالات العسكرية على رقعة الشطرنج، تصرُّفات الجنود التي تميل إلى الارتفاع عن مستوى الموت في لحظة اكتشاف ماهيَّتِه، إنها حالة التصالح مع ثيمة الموت والحرب في آن معاً.

ينتقل الكاتب بين دوائر الحكاية مروراً من ملبورن وسيدني إلى دمشق والقاهرة وصولاً إلى شمالِ بانكوك في تايلاند، فنجد العديد من التفاصيل التي يوردها الروائي نهلاً من ذاكرتِه التي أراد في هذا النص كشف حساب متأخِّر معها.

ثيمة الرواية

تلك العتبات كلها جاءت للكشف عن ثيمة الرواية، التي تأتي فضاءاتها نتيجة القرار الإمبراطوري الياباني بإنشاء خط حديدي يربط بانكوك مع بورما، كان ذلك أوائل العام 1943 حيث وصل الأب أسيراً إلى سيام، تزامن وصول الأسرى مع إحساس عارم بالإحباط في صفوف اليابانيين المدنيين في ظل قلة موارد البلاد وعدم قدرة الدولة على استرداد البحار من القبضة العسكرية الأميركية، ذلك الإحباط كان يقابله إيمان عميق لدى جنود الإمبراطور بأن النصر حليفهم لأنهم يملكون روح النصر، روح الإمبراطور التي لا تُقهَر، لذلك غامر الجنرالات بقرار الربط البري بين اليابان وبورما لتزويد الفيالق العسكرية بالعتاد والرجال في سبيل خوض المعركة للسيطرة على الهند، الطريق البري يفرض قوانينه والجغرافيا لها مزاجيَّتُها التي يحاول اليابانيون كسرها بقوة العبيد من الآسيويين والأوربيين وأسرى الحرب من الجيش الأسترالي الذين فاق عددهم 22 ألف جندي بعد سقوط سنغافورة.

كان العالم مقسوما عند البطل إلى قسمين، مَن قضى في بناء الخط الحديدي، والعالم الذي يعيش خارج الخط، فرقة الناجين من البناء لم تكن مدرجة في خيالاته أبداً، لذلك نراه يُغرق في وصف كلمة الخط بأنها تنطلق من نقطة إلى نقطة، خط طول بلا عرض، مقبرة مفتوحة لعظام الراحلين، في ظروف استثنائية خارج نطاق التخيُّل يشتغِل الأسرى إلى جانب العبيد في حرب لا تمثِّل شيئاً واحداً بل هي أشياء كثيرةً تختلط مع بعضها البعض لتغيِّر مصائر الجميع، المنتصرين منهم والمهزومين.

الحب والحرب

من الواضح أن الكاتب واصلٌ إلى حد الإشباع الكلّي من تفاصيل تلك المرحلة، فنراه يسرد بجرح مفتوح عن وجبات الطعام منتهية الصلاحية، والأمراض المعدية التي بدأت تتفشَّى بين الجنود والعبيد، في صورة سيطرة العدم على كل شيء، فيطغى الموت على الأحداث رغم أنَّه لا يشكِّل اللحظات الأكثر قسوة في المعتقل أو جولات الحرب.

السرد الروائي يأتي على لسان الطبيب الجراح "دوريغو إيفانز ، الذي يقرر بعد سنوات طويلة من استقراره بمدينة أديلالد الساحلية في أستراليا، كتابة مذكّراته عن سكة الموت اليابانية، كونه الشاهد الناجي من المجزرة التي امتدت لسنوات، فيلجأ هنا إلى استجرار التجارب المُروِّعة التي عاشها مع آخرين في ثنائيات تبدو مفهومة في سياق النص الذي يناقش في ثناياه العديد من القضايا، أبرزها الجلاد والضحية والعلاقة بينهما، الجنود كضحية قرار الكبار في الحرب، الصفقات التي تحدث وتقلب موازين القوى في اللحظات العصيبة من الحرب.

كان لا بد من قصة حب في ثنايا الدوائر السردية ليكون صراع الشخصيات أخفَّ وطأة عند المتلقّي، لكن هنا تكمن مفاجأة من عيار آخر لا تقلّ عن قسوة الحرب، البطل يتورَّط بقصة حب عنيفة مع زوجة عمه "إيمي" التي تصغره بسنوات، يلجأ إلى الحب المحرَّم في ظلّ الحرب العبثية التي تسيطر على العالم وكأنَّه يعتبر نفسه جزءاً من هذا التلوُّث الذي يسيطر على العالم ككل.

ربما السنوات الطويلة التي مرَّت بها كتابة فصول هذه الرواية، فرضَت على الكاتب علاقة خاصة معِ شخصياتِه التي يعرف بعضها حُكماً بسبب كتابَته عن سيرة أبيه، هذه المعرفة جعلَت الفصل الأخير يلجأ إلى الخراب الكلّي في النفس البشرية، الخراب الذي يفرض نفسه بصورة الكهولة التي يصل إليها البطل وتلقِّيه خبر وفاة عمه وزوجته وثلاثة آخرين نتيجة حريق كبير شبَّ في فندقِ الملك، فلا يجد الطبيب المتقاعد مكاناً يلوذ إليه سوى الطبِيعة التي تغرَقُ بمطر غزير يمشي في ظله ديغور ليلاً فتتعثّر عيناه بزهرة نبتت في غير مكان ووقت ظهورها الطبيعي، ينحني قليلاً ثم يمشي إلى اللامكان.

لا بِد من القول أخيراً إن المترجم كان أميناً على النصّ من حيث الترجمة، هذا جاء واضحاً في آلية نقل الرواية الأصلية لمشاهد عديدة كان بالإمكان صياغتها عربياً بطريقة أفضل، أو بإعادة تفكيك مقاطع كاملة وتركيبها من جديد، وهذا ما يدعمه خلوّ الرواية تقريباً من أيّ مفردات لا معنى لها بالعربية حيث غابت الهوامش كليًّا عن المتن.

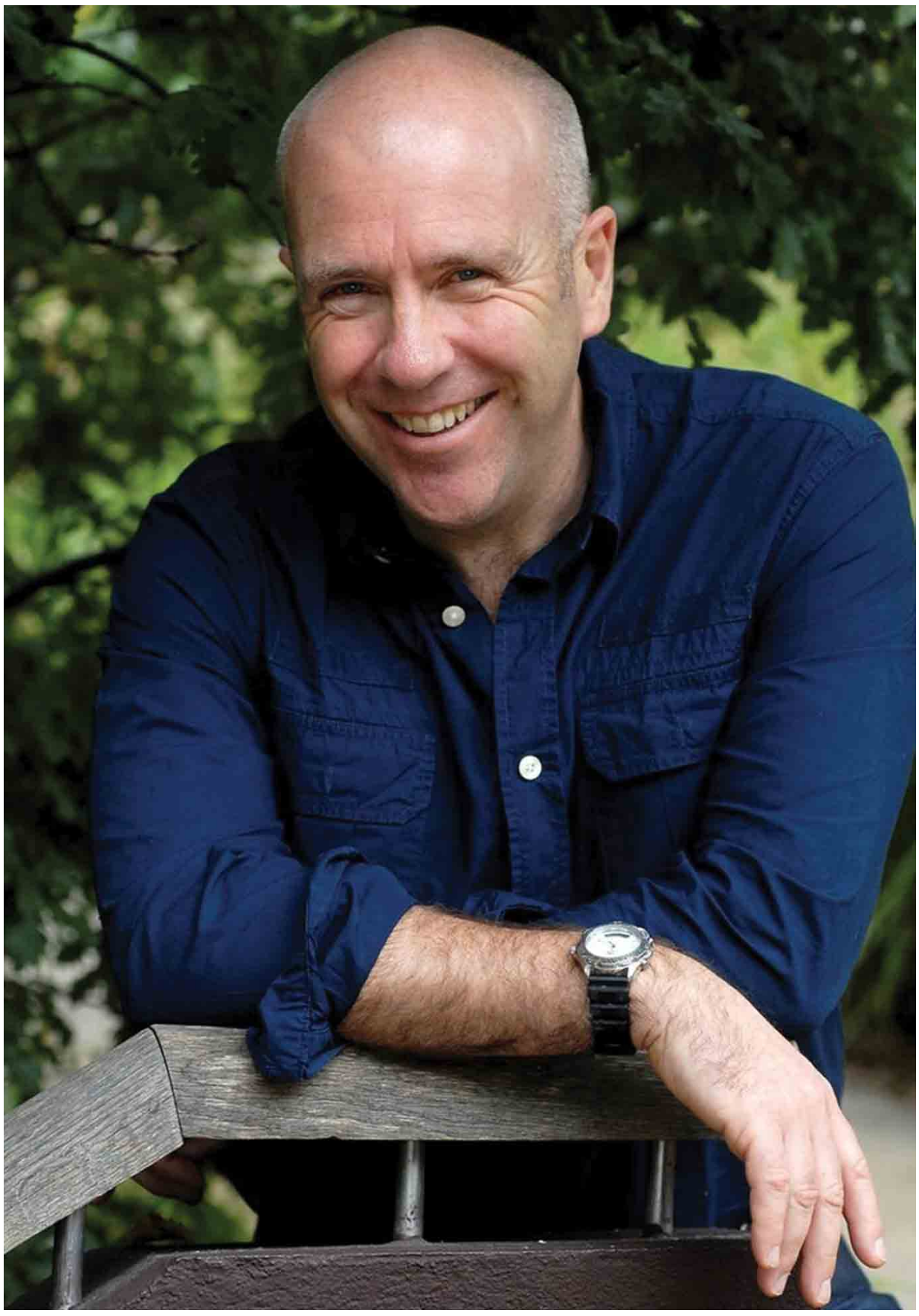

فلاناغان: الحرب تغيِّر مصائر الجميع

رف الكتب

«سلفنة» الأذهان

❏ في كتاب "فسيفساء الإسلام" يبين اللبناني سليمان مراد أستاذ تاريخ الإسلام وحضارته بماساشوست لمحاوره الأميركي بيري أندرسن أستاذ التاريخ وعلم الاجتماع بكاليفورنيا أن الإسلام ليس واحدا بل متعدد، إذ انقسم منذ ظهوره إلى مذاهب ونحل، مع ما يتبع ذلك من تباين الشعائر، وكيف أن المسلمين بعد صدمة الاستعمار زهدوا في عمومهم في اعتبار الدين حلاّ لمشاكلهم التنموية والاقتصادية، فأصبح تدينهم معتدلا يمارسونه ممارسة أقرب إلى التقاليد دون تعصب ولا تزمت، ولكن الأعوام الأخيرة شهدت بروز السلفية الوهابية التي تريد أن تفرض نفسها كمثال للإسلام الحق، وما داعش إلا صورة منها، حتى بات المسلمون وغير المسلمين يعتقدون أن الأمر كذلك. هذا "النجاح" يفسّره الباحث بانصراف المعتدلين إلى ما يفيدهم في حياتهم العملية، وكثرة العراقيل التي تمنع القلة المستنيرة من الإصلاح، فهم عادة ما يُنعتون بأعداء الإسلام، والمتواطئين مع الغرب.

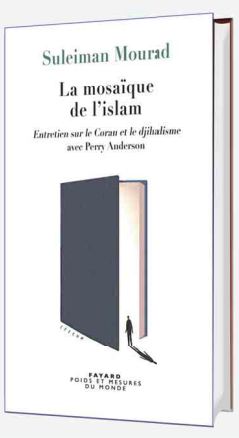

متاعب العمل الثاني

❏ "بيست سيلر" أو "الكتاب الأكثر مبيعا" هو عنوان الرواية الثانية للكاتب والصحافي المغربي رضا دليل، وبطلها روائي ينال الشهرة والمجد عن رواية أولى، فينصرف عن الكتابة ليغنم ما يأتي من وراء هذه العمل الذي جعل منه نجما بارزا في سماء الدار البيضاء، حيث تتعدّد الدعوات وترتفع المبيعات وتنهال المكاسب، وفي ظنه أن ذلك سيدوم إلى ما لا نهاية، ولكن بعد مضيّ أعوام يخفت نجمه ويلتفت النقاد إلى سواه، فيضطرّ إلى الجلوس لإبداع عمل ثان. هذا العمل الثاني سيستعصي عليه، وسيلفي نفسه عاجزا أمام الصفحة البيضاء، لا يدري ما يكتب. وبما أنه قد أصبح في الأثناء ربّ أسرة، فقد صار يشعر أن المخرج الوحيد بالنسبة إليه هو "بيست سيلر" وإلا فالإفلاس على الأبواب. الرواية يمكن أن تقرأ كسيرة ذاتية، ويمكن أن تقرأ كنقد اجتماعي لواقع مدينة عملاقة مليئة بالمتناقضات.

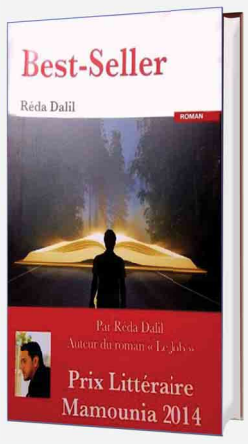

التاريخ بين الحتمية والاحتمال

❏ ماذا كان يحدث لو جرى التاريخ أو الحياة مجرى آخر؟ ما نسميه التفكير ضد الوقائعي يتخلل النقاش بعفوية ويغذي فرضيات عن إمكانات ماض لم تتحقق أو وقائع مستقبل لم تقع. نجد ذلك في الأدب مثلما نجده في التأملات السياسية. في كتاب طريف يجمع بين المعرفة والخيال المستند إلى معطيات تاريخية ثابتة عنوانه "لأجل تاريخ الممكنات" يحلل كنتان دوليرموز الأستاذ المحاضر بجامع باريس 13، المتخصّص في التاريخ الاجتماعي والثقافي للقرن التاسع عشر، وبيير سنغارافيلو أستاذ التاريخ المعاصر بالسربون المتخصص في تاريخ الاستعمار في القرنين التاسع عشر والعشرين، الاستعمال ضد الوقائعي، سواء في الأعمال الأدبية أو في الفرضيات الجدلية، للإحاطة بظروف استعمالها استعمالا ملائما في العلوم الاجتماعية، والوقوف على رهانات السببية والحقيقة، والعلاقات بين التاريخ والأدب التخييلي، بين الحتمية والاحتمال.